ليتفكروا

عوائق النهضة: تفكك «شبكة العلاقات الاجتماعية»

د. بدران بن الحسن *

يبلغ المجتمع فعاليته القصوى في طريق تحقيق نهضتـه متوقفا – كما يقـول مالك بن نبي– علـى «الحالة التي يحقـق فيها هذا المجتمع أفضل الظروف النفسـية الزمنية لأداء نشاطه المشترك. وهذا يحدث بوجه عام عندما يكون المجتمع في حالة النشوء: كالمجتمع الإسلامي في العهد المدني، وكالمجتمع المسـيحي في مغـارات روما، إذ إنه في هـذه الحالة يحقق أرفـع درجـات الاندماج والانسـجام، فيكون التوتر الأخلاقي قد بلغ ذروة درجاته» (ميلاد مجتمع 37). ولذلك تمثل تجربة الجيل الأول في امتنا تجربة قـدوة لأنها تتحقق فيها أعلى مستويات الانسجام الروحي والفكري والأخلاقي والاجتماعي، مما جعلها تجربة تحقق الفعالية القصوى في كل ما قامت به من منجزات.

ولعـل هـذا يتمثل في عقـد المؤاخـاة بين المهاجريـن والانصار، وكذلك في قوله صلى الله عليه وسلم «المُؤمِنُ للمُؤمِنِ كالبُنْيانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا» (رواه الشيخان). وهو «يعكس حالـة المجتمع الإسـلامي الأول، حين حقق بالمدينة نموذج المجتمع المنسـجم في طبقة واحـدة، وكان كل فرد مرتبطـا ارتباطا واقعيا بكل الآخرين من أعضاء المجتمع بوسـاطة علاقات شخصية» (ميلاد مجتمع 39-38). ولكن المجتمع يفقد فعاليته، ويدخل في طريق التخلـف والتفـكك والعطالة عـن أي إنجاز تاريخـي، لما يصل إلى وضـع يفقد فيه هذا الانسـجام بين أفراده كما يفقده بين منظومته الفكريـة والقيمية والروحيـة. «فيتفرق أفراده ذرات، ويصبح في نهايـة تحلله عاجزا تماما عن أداء نشاطه المشـترك» (ميلاد مجتمع، 37).

وهذا مؤشر خطير على أن المجتمع متعرض للهـلاك. بالرغم من أن هـذا المجتمع يكون متخما «بالأشخاص والأفكار والأشياء» (ميلاد متجمع، 41)، ولكن بلا جدوى.

ولعل هذا ما يشير إليه حديث النبي صلى الله عليه وسـلم: «يوشك الأمَمُ أنْ تداعى عليكم؛ كما تداعى الأكَلَةُ إلـى قَصْعتها. فقال قائل: ومن قلّة نحنُ يومئذ؟ قال: بل أنتم يومئذ كثيرٌ، ولكنكم غُثاءٌ كغُثاءِ السَّيْل، ولينزعنَّ اللهُ من صـدور عدوِّكم المَهابةَ منكم، وليقذفنَّ اللهُ في قلوبكم الوَهْنَ. فقال قائل: يا رسـولَ الله، وما الوَهْـنُ؟ قال: حُبُّ الدُّنيـا، وكراهيةُ المَوت» (أخرجه أبو داود).

وهو حديث يعبر عن حالة من الموت الوظيفي وحالـة من «التحلـل والتمزق فـي المجتمع الإسـلامي»، حين «أصبح عاجـزا عن أي نشاط مشـترك» (ميلاد مجتمع، 41). وهذا ما يسـميه مالك بن نبي رحمه الله تحلل شبكة العلاقـات الاجتماعية، وهو واحد من العوائق الكبرى في طريـق تحقيق نهضتنا الحضارية من جديد.

ويظهر تحلل شـبكة العلاقات الاجتماعية في تمزق البناء الاجتماعي للأمة، وسيادة النزعات القومية والعشـائرية والفئوية، وسـيادة النزعة الفردية فـي المجتمع، مما يؤدي إلى انعكاس بوصلة الانتماء، وقلب لمعيار القيم، وتعارض مصالح الأفراد والجماعات فيما بينها، فيحدث الاصطـدام الداخلي الذي يقضي على العمل التكاملـي الجاد بيـن افـراد المجتمع، وبين مكوناته المختلفة، فيتحـول التنوع الذي يقود إلى ثراء تجربة المجتمع، إلى تناقضات تسبب التنازع والتمزق، ويـؤدي ذلك كله إلى إهدار الكثير من الطاقات الاجتماعية وصرفها فيما لا جدوى منه.

كمـا تتعاظم الانشـغالات الشـخصية على حساب الانشغالات العامة، ويغرق كل إنسان في مفرداته الخاصة وينسـى أنه «اجتماعي بطبعه» من جهـة، وأنه جزء من مجتمع يقع عليـه واجبات عليه الوفـاء بها نحو مجتمعه من جهة أخرى. ولذلك، فإنه كلما زادت غلبة النزعة الذاتية على النزعة الاجتماعية زاد تحلل شـبكة العلاقات الاجتماعية ونقصت الفعالية الاجتماعيـة، وكلما نقـص الدافع إلى العمل المشـترك تقلصت الفعاليـة الاجتماعية وزاد النزوع نحو الفردية أي الأنانية وحب الذات... فزيـادة الفردانيـة في مسـاحات أي مجتمع مؤشر على غياب الفعالية الاجتماعية والعمل المشترك وتحلل شـبكة العلاقات الاجتماعية (نورة السعد، 2008).

وقد غذى هذا «المـرض الاجتماعي» الذي هو تفكك شبكة العلاقات الاجتماعية عاملان أساسـيان؛ أولهمـا تراكم فكـر الانعزال عن المجتمع، والانشغال بالذات، عن طريق بعض التيارات الفكريـة والاجتماعية والروحية التي انتجهـا تطورنا التاريخـي؛ كبعض اتجاهات التصـوف التي بالغت فـي ذم الدنيا ودعت الى الانعزال عن النـاس وتجنب اذاهم، كما ساهمت فيه السلطة السياسية التي قلصت من حرية الحركة الاجتماعية ومن تفاعل المجتمع مع قضاياه، وتفاعل مجتمعات المسلمين فيما بينهم، فبدل ان يكون هنـاك «تواد، وتراحم، وتعاطـف، وتكافـل»، صار هنـاك «عليك نفسـك»، وانشـغل بأمورك ودع الناس لربك النـاس، واهتـم بدائرتك الصغـرى ... ألخ.

اما العامل الثاني فهـو النفايات الأيديولوجية التي تسربت إلينا من تجربة الفردانية الغربية، معزولة عن سياقها، فتحولت إلى «فكرة قاتلة» لكل تراحم وتعاطف وتـواد وتكامل بين أفراد الامة، مما غذى النزعة الفردية، والمبالغة في تجاهل الآخرين وعدم الاكتراث بأوضاعهم.

وجوهر سبب المشكلة في تفكك شبكة العلاقات الاجتماعيـة الذي يتجلى فـي العلاقات بين الأفراد، يكمن «في فيما يصيب الأنا عند الفرد من تضخم ينتهي إلى تحلل الجسد الاجتماعي لصالح الفردية» (ميلاد مجتمع، 43)، فيختفي الشخص– بتعبير بن نبي– وهو الانسان الذي يعي موقع ودوره الاجتماعي، ويحل بدله الفرد، الذي ينشغل بالأنا الفردي وتتضخم شخصيته فوق حدود ما يجعلها فاعلة في المجتمع، على حساب «الجسد الاجتماعي»، وهنا يحذرنا بن نبي من أنه «حينما تصاب الذوات بالتضخم»، يصبح «العمـل الجماعي المشـترك صعباً أو مسـتحيلا»، مما يدل على أن «العلاقات الاجتماعيـة تكون فاسـدة»، وحينها لا يتجه الناس إلى إنجاز عمل مشترك وإيجاد حلول، ولكن إلى إثبات ذواتهم في مقابل الآخرين.

وهذا يحتاج انتباه الخبـراء إلى كيفية بدايات مرض شبكة العلاقات الاجتماعية، كما يحتاج إلى تربية تستعيد للإنسان توازنه الاجتماعي.

*مركز ابن خلدون للعلوم الإنسانية والاجتماعية/ جامعة قطر

البَاقِيـــاتُ الصَّالِحَـــاتُ..

عبد العزيز بن سايب

سـاقتني صـلاةُ عَصْرٍ إلى جامـع الرفاعي بقاسـيون، وهو مسـجدٌ الحيّ الذي يَقْطُنُ به سيدي الشيخ محمد سـعيد رمضان البوطي، وشـاء الله تعالى أن أكون خلف سيدي الشيخ بصَفٍّ أو صَفّين.. الـذي كان مأموماً. وبعد انتهـاء الصلاة مَكَثَ الشـيخُ في مكانه يأتي بأذكار الصلاة وقد أوشـك المسـجدُ أن يخلو من المصلين.

وبينما هو في تلك الحال رأيتُ شـخصا واقفًا وراءه يَرْقُبُ.. وهـو الطبيبُ محمود النَّحْلاوي ولم أفهم علّةَ وقوفه ذاك..

ولم ألبَثْ أن فَقِهْتُ سـرَّ ذلك القيام.. فكُلَّما همَّ شخصٌ بالذَّنوّ من الشيخ محمد سعيد رمضان البوطي أو أراد الجلوسَ قربَه أو مُحادثته يَصرِفُه الدكتورُ محمود بإشارة لطيفة بأصابع يَدِه تَدُلُّ أن الشيخ مَشْغُول بالتَسبيح والأذكار..

جزاه الله خيرا فهو يُقَدِّمُ خِدْمَةً للشـيخ وأخرى لذلك الشخص المُقبِل عليه..

فالشيخ مُنْكَبٌّ على سَنْنِ أذكارٍ وأوراد ودعوات ما بعد الفريضة..

فلا يَحسـنُ أن يَقطَعَ عليه إنسـانٌ تلك الخلوة بربه..

فإذا كان الشرعُ ينهانا أن نقطع حديثَ شخصين وندخلَ بينهمـا بدون إذنهما.. فكيـف نَقْتَحِم مناجاة بين العبد وربه جل جلاله..

أخـرج البخاريُّ في كتابـه الأدب المفرد: عن سعيد المقبري قال: مَرَرْتُ على ابْنِ عُمَرَ وَمَعَهُ رَجُلٌ يَتَحَدَّثُ، فَقُمْتُ إلَيْهِمَا، فَلطَمَ فِي صَدْرِي، فَقَالَ: «إذَا وَجَدْتَ اثْنَيْنِ يَتَحَدَّثَانِ فَلَا تَقُمْ مَعَهُمَا، وَلَا تَجْلِسْ مَعَهُمَا، حَتَّى تَسْتَأْذِنَهُمَا».

وأخرجه الإمام أحمد في مسـنده مرفوعا: عَنْ سَـعِيدٍ الْمَقْبُرِيِّ، قَالَ: جَلَسْـتُ إلَى ابْنِ عُمَرَ، وَمَعَـهُ رَجُلٌ يُحَدِّثُهُ، فَدَخَلْـتُ مَعَهُمَا، فَضَرَبَ بِيَـدِهِ صَدْرِي وَقَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ رَسُـولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ قَالَ: «إذَا تَنَاجَى اثْنَانِ فَلَا تَجْلِسْ إلَيْهِمَا حَتَّى تَسْتَأْذِنَهُمَا».

قـال الحافظ ابن عبد البر فـي كتابه الحافل التمهيـد: لا يَجُـوزُ لأحَـد أنْ يَدْخُـلَ عَلَى الْمُتَنَاجِيَيْنِ فِي حَالِ تَنَاجِيهِمَا .

والناسُ بعد الصلاة أصنافٌ.. منهم من يُهَرْوِلُ خارجا من المسـجد لأمْرٍ يَخُصُّه.. ومنهم من يجلس في مصلاها مشتَغِلا بأذكار الصلاة.. ومنهم من يجلـس بُرْهَةً ثم يَقُـومُ.. فإذا رأى صديقـا أو جَـاراً تَوَجَّهَ إليه.. ومـن هنا يَبدأ الابتلاءُ..

فمن هؤلاء إذا مَرَّ بشـخص ربَّتَ على رأسه.. وآخـرُ يَقبض على كتفـه.. وذاك يَقْرُصُهُ منْ ذراعه.. وذلـك يُدَغدِغُهُ في خاصرتِه.. وآخَر يُوَسْـوِسُ في أذنه.. وآخرٍ يطلبُ منه الدعاء له.. ولعل هذا الأخير أخفهم وأقلهم إزْعَاجًا..

ومنهم مَنْ يُقبِل ضَاحِكا مُستبشرا.. فإذا لم يَجِدْ هَشَّةً وبَشَّـةً يَمتَعِضُ ويَجِدُ في نفسه ويُسِيءُ الظـنَّ بصاحبـه.. والرجل مطأطـئ الرأس مشغول بأذكاره..

وبعضُهم يَشْـرَعُ فـي حديث معـه وهو يراه يعقد بأناملـه أصابعه ذاكرا.. وآخر يفتح معه موضوعا.. وهو في كل هذا يُسَـايِرُهُم مُجَامَلَةً خَجلا.. أو يكاد يتميز غيضا..

والرجـل في كل هذا يحـاول ذكر ربّه أو يمد يديه داعيا مولاه..

ومِنْ أشَدِّهم أذًى الأشْـخاصُ الذين يجلسون بقُرْبِه ويتحدثون بصَخَب.. بل ربما يتمازحون أو يَضحكـون أو يلعبـون.. دون مراعاة لمن بجنبهم من الذاكرين الدَّاعين المتبتلين..

للأسف..البعض بمجرد السلام يتدفق بالحديث مع مَن حولـه.. كأنما انفلتَ من عِقَال.. هذا قد يَذِلّ . والعياذ بالله . أن عقلَهُ وكيانَه لَم يكن في الصلاة وشؤونها.. بل مُتعلقٌ بما بعدها..

وأكثرُ النـاس نصيبا من هـذا البلاء الأئمةُ.. فلا يكاد أحدهم يلتقط أنفاسـه من السَلام حتى يُحْدِقَ به المصلون..

وكذلك خطيبُ الجمعة..فبمجرد سـلامه من الصلاة يزدحم حوله المَجمُعُون لطَرْحِ أسئلتهم وعَرْضِ انشغالاتهم.. غافلين عن إمْهَالِ الإمامِ فرصةَ القيام بوظائف أدبار الصلاة..

نعم.. ربما جاء شـخص للجمعـة وهَمُّهُ ذلك السـؤال فحسـب.. ويريد أن يظفـر بالإمام قبل غيـره.. ويَخْلِصَ له بسـؤاله قبل انكباب الآخرين.. عَلَّهُ يَحْظَى بفرصة الخلوة عند طرح السؤال والخصوصية عند بيانِه..

وهكذا.. فصاحب الحاجـة أرْعَنُ لا يَرُومُ إلا قضاءَها.. كما يقولون..

أكيد هم يُقْبِلون بِحُسْنِ نية وطِيْب طَوِيَّة.. لكن هذا لا يكفي.. فلابُدَّ أن يلتزم الإنسـانُ بآداب الشرع ويتحقق بالذَّوْق الرفيع في التعامل.. ولا يَضُرُّ الآخرين من حيث يريد نَفْعَ نفسه..

قديما قالوا: «المشغول لا يُشغل»..خصوصا إذا تَعَلَّق الأمرُ بالعلاقة بين المخلوق وخالقه..

والعبد وربِّـه.. والمُحِـبُّ ومَحْبُوبه الأعلى.. جَلَّ جلاله وتَقَدَّسَـتْ أسماؤه.. فقبيحٌ التشويش عليها.. فالانتظارُ عند موضعه خَصْلَةٌ كريمةٌ، ومع النية عبادةٌ مبرورةٌ..

يا لَها مِن مَكْرُمَة.. فلله دَرُّكِ يا دكتور محمود.. إنها أوّل مرّة أُشَـاهِدُ شـخصًا أشبه بالحارس الشخصي لآخرَ يمنَعُهُ من قَطْعِ الناس له عن أذكاره ومناجاته..

ولا أدَّعي أن هذا دَيْدَنُ الدكتور محمود.. وإنما هي واقعةٌ حضرتُها أعجبني مَوْقِفُهُ ولَفْتَتُهُ..

والدكتور محمـود طبيبٌ.. ممشـوق القامة، قويُّ البنْيَة، وسـيمُ الطَّلْعَة.. خَلُوقٌ، مُستقيمٌ، تَظْهَرُ عليه مَخايل الصلاحِ.. مُحبٌ لآل بيت البُوطي، شديدُ الملازمة لسيدي المَلا رمضان البوطـي.. توفي في بدايات التسـعينات في الثلاثينـات من عمره عند قوة الشـباب وقمة العطاء.. رحمه الله تعالى..

...

إنَّ ذكرَ الله جل جلاله من أعظم القُرُبَات وأشرف المَبَرّات.. وقد فَسَّرَ بعضُ العلماء قولَه تعالى في سـورة الكهف ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ بأنها الأذكار..

منهم سـيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه عندما سئل عن المراد في الآية، كما في مسند الإمـام أحمد:.. فَمَا الْبَاقِيَـاتُ الصالحات، يَا عُثْمَانُ؟ قَالَ: «هُنَّ: لَا إِلَهَ إِلَّا الله، وَسُـبْحَانَ الله، وَالْحَمْدُ لِلَّـهِ، وَالله أَكْبَرُ، وَلا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلَّا بِالله» .

وَجَـاءَ في بعض الروايات مرفوعا للنبي صلى الله عليه وسلم كما في المسند وغيره . ولم تخلو من مقال . عن أبي سعيد الخدري والنعمان بن بشير رضي الله عنهم .

وهو قول سعيد بن المسيّب من ساداتِ التابعين، أخرج الإمام مالك في الموطأ عنه أنَّهُ قال في «الْبَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ»: «إِنَّهَا قَوْلُ الْعَبْدِ: اللَّهُ أَكْبَرُ، وَسُـبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْـدُ لله، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ».

قَالَ الزُّرْقَانِيُّ: سُـمِّيَتْ بِذَلِكَ لِأَنَّهُ تَعَالَى قَابَلَهَا بِالْفَانِيَاتِ الزَّائِلَاتِ فِـي قَوْلِهِ: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَـةُ الْحَيَـاةِ الدُّنْيَـا﴾.

فَاللهم اجعلنا من الذَّاكرين لك كثيرا والذَّاكرات.. واصْرِفْ عنا بفضلك وقوَّتك كلّ الشواغل عن ذكرك وشُكرك وحُسْن عبادَتك..

كتبه عبد العزيز بن سـايب . عفا الله عنه .